

طفولة وإجازة وأحلام مسروقة..



التي شملت مجتمعين لأطفال مخيم جنين الذين تعرضوا مباشرة للعدوان، وأقرانهم في الريف الذين كانوا أقل عرضة، بأن ٧٣,١٪ من الأطفال سيتوجهون للقتل والانتقام، و ٧٤,٤٪ منهم سيتحولون لمحاربين،

الأمر الذي يعكس سلبيًا على سلوكهم الاجتماعي.

وقال محمود وإيناس إنهم ورغم مبادرة اللجنة المحلية لتأهيل المعاقين في مخيمهم، بإنشاء مركز «الورود» لمتابعة مسائل الطفولة وإخراجها من دائرة البؤس، لا يزالون كثيرًا بأوقاتهم لأن ما أعلى من الوقت قد ضاع. ويخشى مختصون اجتماعيون ونفسيون من تأثيرات الإحباط واليأس على واقع الأطفال ومستقبلهم، مع تراجع تنظيم المخيمات الصيفية والجولات الكشفية والرحلات المدرسية بفعل الظروف العصيبة الناجمة عن تنامي العدوان والحصار. ورغم وجود جهات عديدة رسمية وأهلية ترعى الأطفال والطلّاع وتحوي دوائر مخصصة لهم.

الريف : هموم مضاعفة

إلا أن ريف جنين الذي يضم ٩٦ مجمعاً «٦٧ قرية وبلدة» يعاني بشكل لافت، فعلي ورائدة وطلال وأحمد، خسروا حرية الحركة والعيش الرغد، ففي بلدة علي يعيش ٦٠٠٠ إنسان في معازل بفعل إقدام إسرائيل على إنشاء خط فاصل حطم أحلام الكبار والصغار، وبات يحمل أسماء «غيتو»: أم الريحان وظهر المالح والمنطار وخربة عبد الله اليونس وعرب حمدون وبرطعة الشرقية، فيما نال الجدار من مدارس الأطفال وملاعبهم كحال طورة الغربية والطيبة، وبالتالي أصبح علي

بناء على قرارات الآباء بالسفر حال انتهاء أزمة المعابر.

النزهة الغائبة

إلا أن المشكلة برأي سامي ومحمد ولينا ورائدة تكمن في غياب متنفس عام يمكن الأطفال من القيام بالترويج عن أنفسهم واللهو بعيداً عن الضغوطات المحيطة، إذ تفتقد مدينتهم جنين لأماكن الترفيه العامة، كالمتنزهات والحدائق والمسارح ودور السينما، مع انتشار عديد المراكز الثقافية والعلمية التي تذكر هؤلاء جزئياً بالمدرسة فلا يحاولون بجد الانتساب إليها، إلا أن اثنين منهم انضموا أو شاركوا في نشاطات مركز شارك الشبابي التابع لبلدية جنين، الذي انطلق عام ٩٩ بدعم من حكومة سويسرا، وبتنفيذ من برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، وشبكة المنظمات الأهلية، بغية دعم مبادرات تستهدف المجتمع المحلي، وتدعم النشاطات الموجهة للشباب، وتتبنى مشروعات يشكّلها وينفذها الشباب من تلقاء أنفسهم.

طفولة أسيرة

فيما أمل وإبراهيم ومحمود وإيناس، وأرعتهم أطفال وفتية من مخيم جنين، فإنهم تعرضوا كما نظر انهم بالمدينة إلى ١١٣ يوماً من حظر التجوال خلال العام الفائت، ما دفعهم للبقاء رهائن الحبس المنزلي، وانطلق آخرون من رفاقهم للتمرد على ذلك، بمواجهة آلة الموت العملاقة، يقول إبراهيم: الحياة في المنزل صعبة، والليل مرعب، وأصوات الرصاص باتت ترافقنا طويلاً، وعشنا أياماً مليئة بالقتل، وعانينا الجوع والعطش، فلم يسمح لنا بعيش طفولتنا، أو الذهاب لمدارسنا، وشاهد بعضنا قتل قريبه أو أبيه أمام ناظره وخسرنا منازلنا.

والحال كهذه تتابع أمل، كان التخطيط لإدارة الوقت في حياتنا مسألة ليست بالهامة، فلم يبق لدينا ما نخسره، ولكن ذلك برأي دراسة سابقة لأستاذ علم الاجتماع في الجامعة العربية الأمريكية د. جهاد حمد، سيولد لهؤلاء شعوراً بالكراهية ورغبة بالانتقام والتوجه نحو ألعاب عنيفة، وأظهرت الدراسة

ما أن تصل السنة الدراسية خط النهاية بداية حزيران إلا وتبدأ الأناظر تتوجه إلى نحو مليون طالب وطالبة أنهوا ٢١٧ يوماً دراسياً، بنسبة هي الأعلى بين دول الأرض، بحسب إحصاءات دولية نقلتها الصحف العبرية في (١٨ حزيران الماضي) إذ وضعت أيسلندا في المكان الأول بـ ٢٢٠ يوماً يتعلمها الأطفال خلال عامهم الدراسي، والدولة العبرية ثانياً بـ ٢١٤، وسلوفاكيا ثالثاً بـ ٢١٠، فيما جاءت اليونان بـ ١٩٠ يوماً فقط، وتناسى الباحثون واقعا الفلسطينيين الذي يتفوق في متعلميه على محتليه (١٩,٣ من كل ألف فلسطيني يحملون شهادة عليا، مقابل ١٤ في الدولة العبرية) بحسب معهد إسرائيلي.

٥٣٪ أطفال

يشرح «البير» في محاولة بحثية للتعرف على كيفية إدارة الوقت بين أطفالنا الذين تحولوا من مقاعد الدراسة وانطلقوا كل في شأنه... نبحت في غير مؤسسة، ونبحت في فضاءات كثيرة للتعرف على هؤلاء الذين يشكلون ٥٣٪ من مجتمعنا (من ١٠ إلى ١٧ عاماً) وفق إحصاءات الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني في العام الفائت.

نسبر غور سامي ومحمد وعلي ولينا ورائدة ورهام ومحمود وطلال ومحمد وإبراهيم وأمل وإيناس، وكلهم أطفال وفتية لم يتعدوا السابعة عشرة ويتوزعون على ثلاث مناطق سكنية «المدينة ومخيمها وريفها» ونعترف بعجالة على تخطيط هؤلاء لإدارة وقتهم. ففي المدينة حيث سامي ومحمد ولينا ورائدة يتجه الأربعة نحو التخطيط بمشاركة والديهم، استعداداً للعام الدراسي القادم، وسعياً لاكتساب مهارات ومعارف جديدة عبر الانضمام لنشاطات ومخيمات تدريبية واكتساب أفكار ثقافية وعلمية، فيما تستغل بعض الأوقات في اللهو عبر الحاسوب وعند الأقارب، ويفكر ثلاثة من هؤلاء

جنين: أجساد غصه وفقر مدقع..

مصائب

تحدث كسابرة عن حال بلدة صانور بمحافظة جنين، التي تعاني أكثر من غيرها، جراء افتقار البلدة لسهولها الزراعي بفعل مياه الأمطار التي حولته لبحيرة عملاقة، ولفقدان العمال مصادر الارتزاق داخل الخط الأخضر، ونفسي البطالة، عدى عن أخطار مخلفات مسكر جيش الاحتلال السابق، الذي يشكل رعباً إضافياً على الأطفال. وتروي: يتسبب الفقر بمضاعفات خطيرة على الأطفال، فينقل إليهم الهزال وسوء التغذية وأمراض الدم وتصبح أجسادهم عرضة للمرض الدائم، وتؤكد حقيقة أن الجيل الفلسطيني الجديد سيكون في طوله بثلاثة سنتيمترات جراء سوء التغذية، وهو ما أشارت إليه المخرجة عزة الحسن في التراجيديا التلفزيونية «ثلاثة سم أقل»

أوجاع بالجملة

ننطلق باتجاه تجمع بئر الباشا الجاثم على الطريق الرئيس جنين- نابلس، الذي بات ملعباً للأطفال بعد سلسلة الحواجز الاحتلالية التي خنقته، الصيف هنا مغاير والفرحة بعطلة الأطفال شبه مفقودة، فالبلدة الصغيرة تعد واحدة من أكثر المناطق إصابة بمرض فقر دم البحر المتوسط «الثلاسيميا»، بسبب معدلات الزواج المرتفعة بين الأقارب نظراً للتركيبة السكانية قليلة العدد، وفق أحد الآباء الذين يحتضنون أكثر من «أسير للمرض»، ولا يعتقد الأطفال أن أيام الصيف تختلف عن سواها، فهي أقل من عادية بنظرهم. وللاطفال سهام وسعيد وهائل أسعد جبابشة كحكاية مغايرة، فلأنهم إضافة لشقيقتين كبيرتين، مصابون بالثلاسيميا ويعانون الفقر المدقع، وأجبروا على ترك المدرسة لعدم مقدرتهم استيعابهم بفعل المرض.

شهادة من دمع

تقدم الأم شهادة مشفوعة بالقسم، وتروي: حينما أسير في الطريق وحيدة أحدثت ونفسي، تنتابني ليلا كوابيس مزعجة، تتساقط الدموع على مخدتي حتى تبتل، أطفالنا بحاجة لغذاء وعلاج ولا أملك شاقلاً في جببي، التيار الكهربائي مقطوع عنا ولا نمتلك الكاز لإضاءة المصابيح... وراء كل عبارة تخبيء الأم

أمل جبابشة همو ما تكاد تتوزع على جبال الدنيا، فيما نجلها عميد بوجهه المنتفخ وعينه الصفراوين يختمن بقائمة وجع مشابهة، فيقول: أحلم بأن أكون سعيداً، من المستحيل أن أتناسى مرضي، فقدت كل أحلامي، خسرت المدرسة، لا أصدقاء لدي، حتى أطفال جيراننا الثلاثة يذكر ونني بمرض، فهم مثلي.

ننقل القصة لرائيا محمد الطالبة في جامعة القدس، فتقول: حينما يجتمع الفقر والمرض والطفولة تصبح المأساة أكثر تعقيداً، فالمرض الطفل في الأساس يفقر إلى الصحة ويحتاج لغذاء مناسب، وعلاج باهظ الثمن، وإذا ما مرض الفقير الصغير فإنه سيموت مرات عديدة لمرضه وفقه وبؤسه.

احتفظ الفتى هاشم بقصاصة صحفية تشير لنتائج مسح الجهاز المركزي للإحصاء، أعلن بداية حزيران الحال، أن ٦٣,٣٪ في الضفة وغزة وبواقع ٣٦ ألف أسرة مؤلفة من مليونين إنسان و٤٣٨ ألفاً يعانون الفقر والشقاء. ولم يكن سبب احتفاظ هاشم بهذه الدراسة إلا لسبب أنه واحد من هؤلاء الذين لم تدخل جيوبهم خمسة شواقل مجتمعة منذ نحو ثلاث سنوات، وباتت إما خاوية أو تحتوي على أنصاف الشواقل لا أكثر.

يضيف: حتى الجريدة التي تتحدث عن الفقراء أمثالنا، لا يمكننا قراءتها إلا في المناسبات السارة، ولعل الصدفة هي التي مكنتني من معرفة رفاقي البؤساء.

الفقر يفضي لمأساة

لكن هاشم حصل على نسخة من ملحق أصدرته الحركة العالمية للدفاع عن الأطفال، بمناسبة يوم الطفل العالمي، في الفاتح من حزيران، وما زال يتذكر جيداً حال الطفل الغزي حسن، ذا البنية الضعيفة، الذي يعمل في حقل شاق، إذ يرفع أحياناً الخشب والأثاث الثقيلين، ويتقاضى نحو ثلاثمائة شاقلاً شهرياً.

ويعتقد أن لحسن نظراً بالعشرات في مدينة جنين، حيث يعمل صديقه علاء في بيع المناديل والنثريات.

يقول (ع) والدموع الحارة تنهمر، إن ابن عمه الطفل تعرض قبل ثلاث سنوات، عندما كان في ربيع عمره العاشر، لاعتداء واغتصاب من قبل مجموعة من الإسرائيليين، الذين توقفوا بجانبه عند مفترق إحدى الطرقات، حيث كان يبيع بعض الحاجيات للسائقين داخل الفاصل الأخضر.

يضيف: ما زال المشهد ماثلاً أمامه، والسبب الفقر الرهيب الذي يطارد عائلة عمي.



استنفذت الأم كل وسائل الإقناع لأولادها من أجل الصبر على الجوع، ولم تجد غير روي قصة «طاهية الحجارة»، عن تلك المرأة التي عاشت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب عندما دفعها ضيق ذات يدها لطهي الحجارة، وإيهام أبنائها بأنها «الوليمة الافتراضية» حتى ناموا...

تقطن السيدة الريعينية التي أصبحت تعيل ستة أطفال، بعد فقدان زوجها لمصدر رزقه منذ زهاء السنتين، وقبالة بيتها العتيق، في إحدى ردهات قرية زبوا، ١٣ كم غرب جنين، التي أتى جدار الفصل العنصري على أحلامها، بدأت تعيد لنا ثانية وتعديات جديدة مكابقتها مع الفقر المدقع، الذي بدا وكأنه استعصى على «فيضانات» المساعدات الإنسانية، فظل حياً ولم يمت.

بؤساء صغار

بات النجل الأصغر أحمد يصادق عبارة «زهقنا العدس ويومه» غير أن الأم المغمول على أمرها لا تجد غير الهمس في أنه «في ناس مش لاقين العدس»... فيما يتقاسم أحمد ورفيقاه الصغيران مصروفهم اليومي المتواضع، الذي لا يتعدى النصف شيقل لثلاثتهم، ويضطر كثيرون من أصدقاء المعاناة والحرمان إلى الاستدانة، بعد الحصول على إذن من آبائهم، كون جهات توفير الديون باتت تتغير، إذ أصبح كثر مدينين لأكثر من صاحب حانوت، فيضطرون بعد مطالبتهم بالمستحقات المترتبة عليهم، لتبديل الجهة وهكذا... ومع ذلك فإنهم مدركون بأن الأيام ستقلص الجهات المقرضة والمناحة.

إجازة بلا طعم

يتحسر الأطفال في استهلال إجازتهم المدرسية، كونهم لن يستطيعوا التمتع بها كما يجب، لأن المتعة بحسب الصغير